سورة النساء

[آيات المواريث]

۞ قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ

وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ [النساء: ١١ - ١٤]. [٢٨]

[شرح٢٨] فقد بيَّن الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات تفصيل المواريث بياناً شافياً عظيماً، وكمَّلَ هذا البيانَ بما يتعلَّقُ بالإخوة في آخر السورة، فجمعتْ هذه الآيات مع الآيات في آخر السورة بيانَ المواريث للأقارب كلِّهم، من الفُروع والأصول والحواشي. وقسَّمها سبحانه قسمةً عظيمة في غاية الحِكمة والعدالة، سبحانه الحكيم العليم؛ فإنه أَعلمُ بأحوال عباده، وهو أعلم بما يصلحُهم في كلِّ وقت؛ والحكمة في ذلك ـ والله أَعلم ـ أنَّ في ذلك جَبرَ =

.....

= الأقارب وجَبرَ الزوجين، فإنَّ بين الأقارب من الصِّلة والمحبَّة والتَّعاون ما بينهم، وبين الزوجين ما بينهم.

فمن حكمة الله عز وجل أن جَبرَ هؤلاء وهؤلاء بقَسْمِ أموال قريبهم بينهم، وقَسمِ مال الزوج وإعطاء زوجته منه، وهكذا الزَّوجةُ، وجَعل ذلك للأقربين قبل غيرهم، فراعى في ذلك ـ سبحانه وتعالى ـ القرابةَ والأصولَ والفُروعَ والحواشي، وأحوالَ الزوجين رحمةً من الله عز وجل، ولُطفاً منه سبحانه وتعالى، فلو أُخذ هذا المال منهم لغيرهم ـ لبيت المال، أو لغير بيت المال ـ لكانت المصيبة مصيبتين: مصيبة بموت قريبهم، ثمَّ المصيبة بنَزع ماله لغيرهم، فمن حكمة الله سبحانه وتعالى أن جَعل مالَه لقرابته، رحمةً منه بعباده وإحساناً منه جلَّ وعلا، إلى غير ذلك من الحِكَمِ العظيمة التي فيها توزيع هذا المال على هؤلاء الأقارب توزيعاً عجيباً حكيماً مفصَّلاً؛ فهذا له شيء مقدَّر، وهذا ليس له شيء مقدَّر، وهذا يَثبُتُ دائماً ويُعطى دائماً، وهذا قد يُعطى وقد لا يُعطى، وهذا يُعطى مع قومٍ ولا يُعطى مع آخَرين، إنَّ ربَّك حكيم عليم، جل وعلا. =

.....

= ولهذا قال في أثناء الآيات بعدما فَصَّلَ المواريث للأقارب قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ والمعنى: أنه لم يفصِّل هذا التَّفصيل عن جهلٍ، ولا عن اعتباط بغير حكمة ـ حاشى وكلا ـ، بل عن حكمة وعلمٍ، فهو الحكيم العليم، له العِلمُ الكامل والحكمة الكاملة سبحانه وتعالى.

ثمَّ بعدما خَتمَ تفصيلَ المواريث قال بعد ذلك: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ فذكرَ علمَه وحلمه، وأنه سبحانه وتعالى قسَّم هذه المواريث عن عِلمٍ، ثم عن حِلمٍ، فلا يُعاجِلُ مَن أخطأَ أو تَعدّى بالعقوبة؛ فهو حليمٌ سبحانه وتعالى. وهكذا في آخِر السورة ذَكر مواريثَ الإخوة فقال: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النساء: ١٧٦] بيَّن أنَّ هذا عن عِلمٍ، وأنَّه سبحانه وتعالى فصَّل هذه المواريث عن عِلمٍ كما فصَّلها في أوَّل السورة عن عِلمٍ ـ جل وعلا. =

.....

= ثمَّ راعى في حقِّ الزَّوجين ما هو لائق بهما؛ فإنَّ الزوج مصيبته في الزَّوجة أكبر؛ لأنه يلتمسُ زوجةً أخرى بدلها؛ ليلتمسَ مَن يَعِفُّه، ومَن يَسكنُ إليه، ومَن يتولى أَولادَه إن كان له أولاد، فهو في حاجة أكثر، بخلاف الزوجة؛ فإنها قد تُنْكَحُ، وقد تُجبَر بعد موت زوجها؛ ولهذا جَعلَ حقَّ الزوج أكثر؛ فأعطاه مثل ما أعطاها مع عدم الولد، فيُعطى النِّصفَ، ومع الولد يُعطى الرُّبع. وهي مع عدم الولد تعطى الرُّبع، ومع وجود الولد للزوج تعطى الثُّمنَ، فالله حكيم عليم جل وعلا.

وجعل الأصول والفروع مُقدَّمين على الحواشي، فالأولاد والآباء والأمَّهاتُ مقدَّمون، ولا يرثُ الحواشي معهم إلّا في صور قليلة فيما إذا كان أولياء الولد أنثى، وفَضُلَ شيء، فقد يأخذه أقرب العَصبَةِ من غير الأولاد كما في أمٍّ وبنتين، أو أمٍّ وبنتٍ، أو أمٍّ وأكثر من بنت، أو جَدَّةٍ، ونحو ذلك، فإنَّ ما يَفضُلُ بعد البنات والأمِّ والجدَّةِ يأخذه العاصِبُ من الحواشي من بنت الأخ الشَّقيق والأخ لأب، وابن الأخ والعمِّ، ونحو ذلك. =

.....

= والمقصود أنَّ هذه الآيات العظيمةَ فيها حِكَمٌ وأسرار ودلالةٌ على حكمة الله سبحانه وتعالى، وأنه ربُّ العالمين، وأنه الحكيم العليم، وأنه يستحقُّ لأن يُعْبَدَ ويُعَظَّمَ جلَ وعلا، وأن العبد مهما بلغ من العلمِ، ومهما بلغَ من الفضل والحكمة، فإنَّ علمه وحكمتَه بالنِّسبة إلى عِلم ربه وحكمة ربه، شيءٌ ضعيف جدّاً لا يُقارِب ولا يُداني.

ثم بعدما ذكرَ هذه الأحكام وفصَّلها ـ جل وعلا ـ قال: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ أي: فرائضه التي حَدَّها لعباده، ووزَّعها بين عباده، ونظَّمها بين عباده، فيجب أن يستقيموا عليها، وأن يلتزموا بها، فإنَّ الحدود تُطلَقُ على الفرائض كما هنا، وكما في قوله جل وعلا: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وتُطلَقُ الحدود على المَحارم التي حرَّمها على عباده، كما قال جل وعلا: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ [البقرة: ١٨٧] يعني: المعاصي التي حرَّمها على عباده. فوجبَ على العباد أينما كانوا أن يَلزَموا حدودَ الله سبحانه وتعالى التي فرضها في المواريث، وفي المعاملات، وفي الجنايات، وفي الحدود الشرعيةِ، وفي غير ذلك. وأما حدودُه =

.....

= التي هي المحارم، كالزِّنى والسَّرقة وسائر المعاصي، فإنه يَلزمهم الوقوفُ عندها وعدمُ اقترافها وعدم الوقوع فيها؛ بل يجب أن يَحذَروها، وأن لا يَقرَبوها، ولا يَقترِفوها، فهي حِمى الله، فلا يَجوزُ لهم أن يَنتهِكوا حِمى الله سبحانه وتعالى.

ثم ذكر بعد ذلك مَصيرَ مَن استقام على أَمر الله ولم يتعدَّ حدوده أنَّ له الجنَّةَ والكرامةَ، فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ وهذا يبيِّن لنا أنَّ مَن استقام على الحدود التي فرضها الله على عباده، ولم ينتهك الحدود التي حرَّمها، فله الجنَّةُ والكرامةُ والعاقبة الحميدة، أمّا من انتهك محارم الله، أو تعدّى حدود الله، فهو مُتوَعَّدٌ بالعذاب الشديد والمُهين ـ نعوذ بالله ـ لكونه خالف أمر ربِّه وانتهك حدودَه وغَشيَ محارمه، وتعدّى ما شرع سبحانه وتعالى؛ فنسأل الله التَّوفيقَ والفقهَ في الدِّين، ولا حول ولا قوة إلّا بالله.

[أسباب صلاح المجتمعات في الدنيا والآخرة]

۞ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ

فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾ [النساء: ٥٨-٧٠]. [٢٩]

[شرح٢٩] في هذه الآيات توجيه إلى ما فيه صلاح المجتمع في العاجل والآجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا =

.....

= حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ فإذا حصل هذان الأمران تمت السعادة وصلح المجتمع، فإذا أُدِّيت الأمانات وحكم بين الناس بالحق وهو العدل فقد حصلت أسباب النجاة وأسباب السعادة وأسباب الراحة في الدنيا والآخرة وأسباب استقامة العباد.

وهذه الآية يقال لها: آية الأمراء؛ لأن الأمراء إذا أدوا الأمانات وحكموا بين الناس بالعدل استقامت الأحوال، وجاء في التفسير: أن سبب نزولها مفتاحُ الكعبة حين أخذه النبي ﷺ من عثمان بن طلحة ثم رده عليه. وقد علم أن الاعتبار في النصوص بعمومها لا بأسباب نزولها وإنما الأسباب توضح المعنى.

فالحاصل أن الأمانات تشمل أمرين: تشمل أمانات الله من صلاة ووضوء وغُسل جنابة وغير ذلك، وتشمل حقوق الناس من ودائع وعَوارٍ وديون وغير ذلك؛ فالواجب على كل مسلم بل على كل إنسان أن يؤدي الأمانات، حتى ولو كان كافراً، فهو مخاطَب بفروع الشريعة. =

.....

= وأعظم الأمانات توحيد الله، فعلى كل إنسان أن يوحد الله، وأن يخصَّه بالعبادة، وينقادَ للرسل، ولا سيما خاتمهم؛ فإن الله أوجب على جميع العباد أن يتَّبعوه لَـمّا بعثه الله عليه الصلاة والسلام.

وعلى الأُمراء والـحُكام ومَن له سلطة أن يحكم بين الناس بالعدل، وأن يحذَر الحكم بالفجور، حتى ولو حكم بين الصبيان فيما اشتجروا فيه فعليه أن يعدل، ولا يجور في أي شيء يحكم فيه، فكيف بحكام المسلمين! وكيف بقضاة المسلمين! فهذا شأنه أعظم.

فالحاصل أن الآية الكريمة تفيدنا أمرين عظيمين بهما صلاح المجتمع وبهما السعادة في الدنيا والآخرة: أداء الأمانات من حق الله وحق عباده، والحكم بين الناس بالعدل.

ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ هذا ديوان عظيم عام، ونظامٌ للأمة ومَنهجٌ لها، إذا استقامت عليه تمت سعادتها، وهو طاعة الله والرسول، وطاعة =

.....

= ولاة الأمور، ثم ردُّ ما يتنازع فيه الناس مع ولاة الأمور، أو فيما بينهم، إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله. وهذا منهج كافٍ شافٍ مختصرٌ عظيمٌ، فيه النجاة والعصمة، طاعة الله والرسول في كل شيء من أقوالك وأعمالك، في العبادات، وفي المعاملات، وفي الأخلاق، وفي القضاء والخصومات، وفي الأقانين، وفي النكاح والطلاق، فعلى العباد أن يطيعوا الله ورسوله في كل شيء، وعليهم أن يطيعوا ولاة الأمور، ولكن يُعلَم من بقية الكتاب العزيز أن الطاعة إنما تكون في طاعة الله وحق الله جل وعلا.

وجاءت السنة تُقيِّد هذه الآية صريحاً، والسنة تخصص الكتاب وتقيِّدُه، كما أن الكتاب يخصص الكتاب ويقيِّد بعضُه بعضاً، وهذا من المواضع التي قُيِّد فيها الكتاب بالسنة، فقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنما الطاعةُ في المعروف»[1]، وقال: «لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالق»[2]، فهذا قَيدٌ لهذه الآية ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ يعني: في المعروف، والله تعالى أعلم. =

(١) أخرجه البخاري: الأحكام (٧١٤٥)، ومسلم: الإمارة (١٨٤٠).

(٢) أخرجه البغوي في «شرح السنة» (١٠/ ٤٤) برقم (٢٤٥٥).

.....

= ثم يقول ـ جل وعلا ـ فيما يتعلق بالمنازعات إذا تنازعوا: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ ردوه إلى الله؛ إلى كتاب الله، وإلى الرسول في حياته، وإلى سنته بعد وفاته ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهذا محل إجماع بين أهل العلم قاطبةً؛ أن التنازع بين الأمراء فيما بينهم، وبين الناس مع الأمراء، وبين الناس فيما بينهم، فيجب عليهم ردُّه إلى الكتاب والسنة الصحيحة، ولا يجوز ردُّه إلى آراء الناس، فالناس يخطئون ويصيبون، والعصمة لله ولما جاء به رسوله ﷺ فيما صح عنه.

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ يُبيِّن أن هذا من واجبات الإيمان، ومن مقتضيات الإيمان، ومن يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه أن يفعل هذا، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ للمجتمع وللعباد كلهم ﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ أحسن عاقبة لهم في الدنيا والآخرة، ثم ينعى على مَن زعم أنه مؤمن ثم يتحاكم إلى غير الله، فقد كذب إيمانه وزعمه.

ويبين بعد هذا ـ جل وعلا ـ أن الرسل أُرسِلوا ليطاعوا =

.....

= ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ والآية التي قبلها بيّن أن المنافقين ودعاة الباطل يَدَّعون دعاوى طويلة ويقولون: ﴿ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ﴾ فلا يغترَّ بكلامهم أهلُ الباطل، فهم دعاة السوء لا ينبغي أن يُغترَّ بما يحدِّثونه من تحسين المقال ومن إظهارهم أنهم ناصحون؛ فالعبرة بما يدل عليه المقال وبما تقتضيه الأعمال، لا بالزخارف وتحسين المقال، فكم من قائل قولاً طيباً ولكن أعماله خبيثة، والمنافقون كما قال الله عنهم: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡ ﴾ [المنافقون: ٤] فكلامهم عظيم وجيد بين الناس؛ حتى يلبسوا على الناس ويكتموا نفاقهم، وهكذا كثير من دعاة الباطل ومن الملحدين، فعندهم فصاحة وعندهم بلاغة وعندهم تحسين المقال ليكسبوا الناس وليكسبوا المجتمع، وهم في الباطن من أعداء الله والرسول.

فينبغي للمؤمن أن يحذر هؤلاء، وأن لا يغتر بهم إذا كانت أعمالهم تخالف أقوالهم، فالأعمال تفسِّر الأقوال وتترجمها وتبين الحقائق، فليس الاعتبار بالقول ولكنه العمل الذي يصدِّقُه القول، =

.....

= وقد ذكر بعض من صنَّف في أعمال أهل الزمان ـ وأظنه الوضّاح ـ في البدع والنهي عنها، ذكر عن سهل بن عبد الله التُّستَري المشهور قال: في آخر الزمان تحسن الأقوال وتسوء الأفعال.

ويقول جل وعلا: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ يبين أنه أرسل الرسل ليُطاعوا، لكن منهم من أُطيع ومنهم من عُصي، بل أكثرهم عصي ولم يطعهم إلا قليل، وبعض الرسل قتله قومُه وما قبلوا منه شيئًا؛ فيأتي وحده يوم القيامة ما معه أحد، وهذا يبين لنا أن أكثر الخَلق يطيع الهوى ويعصي المولى، فينبغي لك أن تحذر وأن لا تغتر بالكثرة؛ قال الله عز وجل: ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦] فالعاقل لا ينظر إلى الكثرة ولكن ينظر إلى ما ادُّعي بدليله، فإن قام الدليل على صحته أخذه ولو لم يكن معه إلا القليل، وإذا ظهر له باطله تركه وإن كان معه الكثير، قال بعض السلف: لا تستحِ من الحق لقلة السالكين، ولا تغترَّ بالباطل لكثرة الهالكين.

وقال جل وعلا: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ =

.....

= الآية، وهذا مطابق لما تقدم، وأنه لا إيمانَ إلا بتحكيم الشريعة؛ أما مع ترْكِها والإعراض عنها والاعتياض بآراء الرجال وأقوالِ الفجرة، والرضا بها، فهذا كفر وضلال وعدم إيمان، نسأل الله العافية.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ الآية، وهذا معناه: إذا جاء الإنسان الظالم نفسُه إلى الرسول ﷺ في حياته، وطلب منه أن يستغفر له وأظهر توبته وندمه، فإن هذا من أعظم أسباب قبول توبته، فالرسول ﷺ يستغفر له؛ كما فعل يوم تبوك لما جاء المعذرون، وجاء الثلاثة إلى رسول الله ﷺ، فالمعذرون لما كذبوا وهم غير نادمين، وإنما جاءوا نفاقاً، لم ينفعهم الاستغفار، وأنزل الله فيهم ما أنزل؛ فدلَّ ذلك على أن الاستغفار من الرسول ﷺ لمن ليس أهلاً له لا ينفعه ذلك، كما قال الله ﷻ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، وهكذا الأعراب لما استغفر لهم الرسول ﷺ وهم كاذبون في الدعوة ـ معذورون أو غير معذورين ـ ما نفعهم ذلك، وأنزل الله فيهم: =

.....

= ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة: ٩٥،٩٦]

فقد بيَّن الله أنهم رجس، وأن اعتذارهم غير صحيح، أما الثلاثة الصادقون الذين ندِموا وهم صادقون، فابتُلوا بالهَجْر، ثم جعل الله لهم العاقبة الحميدة، ومَنَّ عليهم بالتوبة العظيمة، ورضي الله عنهم، فالصادقون عاقبتهم الخير والسعادة، والكاذبون عاقبتهم الخيبة والندامة.

ثم يبين ـ جل وعلا ـ أن ما يظنه بعض الجهلة وبعض من ليس عنده علم أن الآية تعني: أن على التائبين أن يأتوا إلى قبره ﷺ ويسألوه أن يستغفر لهم، فهذا جهل وضلال لا أساس له، بل هو باطل، وقصة العُتبي من أبطل القصص، ولو صحت لم يكن فيها حجة، فهي رؤيا أعرابي لا قيمة لها. فالمقصود بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ هذه تتعلق بالحياة، أما بعد الموت فليس =

.....

= لأحد أن يأتي إلى قبرٍ ويطلب من النبي المغفرة أو الشفاعة أو الرزق أو النصر، بل هذا من الشرك بالله عز وجل، فدعاء الأموات والاستغاثة بالأموات من أعمال المشركين ومن أعمال الجاهلين، وإنما الآية فيما يتعلق بحياته عليه الصلاة والسلام؛ ولهذا قال: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ فالاستغفار لهم كان في حياته، أما بعد وفاته فإنه لا يستغفر لأحد، عليه الصلاة والسلام.

وأما حديث: «تُعرض عليَّ أعمالُكم، فإن وجدتُ فيها خيراً حمدت الله، وإن وجدتُ غير ذلك استغفرتُ لكم» فهو حديث لا أصل له، ولا صحة له عن النبي ﷺ، وإن كان جاء مرسلاً من طريق بكر بن عبد الله المزني، فهو غير صحيح، وقد جاء من طريق عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد، وهو من المُرجئة ويُتهم في مثل هذا؛ فلا يُعوَّل على روايته في مثل هذا.

ولو كانت هذه القضية بعد الوفاة لكان الصحابة أعلم الناس بذلك وأسرعهم لتطبيقها، فهم أسرع الناس إلى كل خير، وأبعد الناس عن كل شر ـ رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين ـ، فالخير في =

.....

= سير طريقهم، والهدى في سبيلهم، فهم أولى الناس بالحق، وهم أولى الناس بكل هدى، وإذا كانت الأمة لا زالت فيها طائفة على الحق منصورة لا يضرُّها من خذلها، فالصحابة أولى الناس بهذه الطائفة وأحقهم بها؛ فلا يمكن أن يتركوا شيئاً ويبتعدوا عنه، ثم يكون الحق والصواب فيمن جاء بعدهم.

ثم يبين جل وعلا في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ يبين أنه من أنعم عليهم هم الطائعون لله ورسوله، وهم المرادون في قوله سبحانه: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧]، فالمُنعَم عليهم هم أهل إخلاص الطاعة لله لا غيرهم، وهم أهل العلم والعمل، وأهل الاستقامة على دين الله، الذين قالوا الحقَّ وعملوا به ودعوا إليه وصبروا عليه، وهم أتباع الرسل، وهم الذين يُحشرون معهم يوم القيامة، بخلاف المغضوب عليهم: وهم الذين يعرفون ولا يعملون لحظهم العاجل، كاليهود وأشباههم، وبخلاف الضالين: وهم العُبّاد على الجهالة، الذين يتعبدون ويتكلمون ويدعون ويعملون على جهالة، كالنصارى وأشباههم، نسأل الله العافية.

[السياسة الحربية في الإسلام]

۞ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ

فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ [النساء: ٧١- ٨٠]. [٣٠]

[شرح ٣٠] في هذه الآيات الكريماتِ التَّوجيهُ إلى كلِّ خير، والتَّحذيرُ من كلِّ شَرٍّ، وقد سَبقَ غير مرَّةٍ أنَّ القرآنَ الكريم أنزلَه الله ليدعو إلى مَكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ويَنهى عن سَفاسِفِ الأخلاق وسَيِّئ الأعمال، ويدعو هذه الأُمَّة إلى ما فيه صَلاحُها ونجاتها واستقامة حالها مع ربِّها، ومع العباد، ويحذِّر الأمَّة من كلِّ ما يَضرُّها في العاجِل والآجِل، ويُعلِّمها الآدابَ الشَّرعيَّة في كلِّ شيءٍ. =

.....

= ومِنْ هذا قَولُه سبحانه وتعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ يأمر جل وعلا بأخذ الحِذْر من الأعداء، وأن الأعداء يَتربَّصونَ بأهل الإيمان الدوائرَ، وينتهزون الفُرص للانقضاض عليهم، وإيذائهم وظُلمهم والعدوان عليهم وإبطال مَساعِيهم الصالحة الخيِّرة ـ هذا شأن أعداء الله ـ فيجب على أهل الإيمان في كل وقت وفي كل مكان أن يأخذوا حِذْرَهم من أعدائهم ومكائدهم؛ بالتعاون على البِرِّ والتقوى، والتَّواصي بالحَقِّ، والحذر من كلِّ تَساهُلٍ يفتح ثَغرةً على المسلمين، هكذا يجب أن يكون أهل الإيمان دائماً، فإذا تساهلوا بهذا صار ضعفاً ونقصاً في الإيمان، وتمكيناً للأعداء.

ولهذا في الآية الأخرى يقول جل وعلا: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، فهم مأمورون بأن يأخذوا الحذر والأسلحة جميعاً، =

.....

= فالعَدوُّ لا يغفل، بل من شأنه التربص والعناية بالثغرات التي يجدها على المسلمين حتى ينفذ منها. فهكذا ينبغي للمؤمن دائماً أن يكون على حذر، وأن يكون على استعداد فيما يتعلَّق بالحرب مع الأعداء، وإعداد القوة لجهادهم وقتالهم حتى لا يجدوا ثَغرة عند المسلمين، وإذا كانت الصلاة التي هي عمود الإسلام وأعظم فريضة بعد الشهادتين يوافيها بأخذ الحذر وأخذ السلاح وحمله؛ لئلا يهجم عليه العدو، فكيف بحال غير الصلاة من الحالات الأخرى التي هي أسهل والإنسان فيها أقدر على حمل السلاح؟

والمقصود من هذا كلِّه التَّنبيهُ على أنَّ المؤمن لا ينبغي أن يَتَّكِلَ على الإيمان، ويقول: أنا مؤمن، وكفى، وأنا معصوم وأنا مُعافى ـ هذا غرور ـ بل يجب أن يأخذ حذره مطلقاً، وأهل الإيمان هم أهل الحذر وأهل العناية وأهل الاستعداد. ولما فرَّط الرُّماة يوم أُحد في الموقف، وتنازعوا فيما بينهم مع أميرهم وجرى ما جرى، ولا يخفى على أَحد ما حدث بسبب ذلك من المصيبة على المسلمين والقتل والجراح بأسباب هذا الإخلال، وهم سادةٌ مؤمنون، وهم أفضل المؤمنين وخيرة الناس من خلقه في ذاك الوقت وفي كل وقت. =

.....

= فنَبيُّ الله ﷺ هو أفضل الخَلق، ومعه صفوة المؤمنين وأفضلهم وخيرهم بعد الأنبياء، وهم أصحابه، ومع هذا لما أخلُّوا بشيء مما يجب الأخذ فيه بالحيطة جرى ما جرى، فلا ينبغي لأهل الإيمان أن يقولوا: إن إيماننا يقتضي أن نُحاط وأن نُحْفَظَ من كل سوء ولو فرَّطنا وضيَّعنا وأخلَلْنا بسُنَّة الله في الحرب، ولم نأخذ الحذر الذي ينبغي، هذا كلُّه مما لا ينبغي قوله أو اعتقاده، فهو تفريط ونَقصٌ وضَعفٌ في الإيمان وغِرَّة يتمكَّن منها الأعداء. وفي هذا يقول جلَّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾، «ثُباتٍ» أي: متفرِّقين، أو «جَميعاً» أي: على حسب ما تقتضي المصلحة، فإذا كانت المصلحة تقتضي أن يتفرقوا هاهنا وهاهنا، لِسَدِّ الثَّغرات، ولحماية الحَوزَة والمجتمع من شر الأعداء ـ فعلوا، وإذا كانت المصلحة تقتضي أن يكونوا جميعاً على وجه واحد ـ فعلوا، فالمقصود مراعاة المصالح ومراعاة الحيطة من شَرِّ العَدوِّ ومكائده من جميع الوجوه.

ثم يُبيِّن سبحانه وتعالى حالَ المنافقين، وأنَّ من الناس من =

.....

= يُبطِّئ ولا يُسارع في الخروج ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ وهذا في شأن أهل النفاق الذين عندهم الجُبْنُ، وعندهم الخَوَرُ والضَّعف، فلا يَعجلوا في النَّفير إلى قتال أعداء الله طمعاً في الحياة وخوفاً من الموت، فإذا نزل بالمسلمين نازلةٌ مِمّا يُصيبُ المُسلمَ من مكائد الأعداء فرحوا بذلك وحمدوا الله أنهم لم يكونوا معهم؛ لئلّا تُصيبَهم المُصيبةُ التي أصابت هؤلاء المؤمنين، وهذا من خَوَرِهم وضعفهم، وإن انتصر المؤمنون وفازوا وظَفروا، طالبوا بأن يكونوا معهم وحَرصوا على أن يشاركوا في الغنائم، وإلى غير ذلك. وهذا من شأن المنافقين وأشباهِهم الذين ليس عندهم ثَباتٌ، وليس عندهم إيمان أو بَصيرةٌ، وليس عندهم صِدقٌ، بل هم مع الدُّنيا وعاجِلِها لا مع الآخِرَة.

ثم يَحُثُّ المسلمين على الجهاد واستِئْمانِ المُستَضعَفِين من أيدي الكَفرة ويُحذِّرهم من التَّساهل وخوف الموت، وأن الموت لا بُدَّ أن يأتيهم أينما كانوا.

ويُبيِّن جلَّ وعلا أنَّ ما أصابهم مما يكرهون أو يحبون كلُّه =

.....

= مقدَّر، وكلُّه من عند الله، فما أصاب مِن سيِّئةٍ، يعني: ما أصاب من مصيبة في نفس أو مال، أو مِن حسَنةٍ من نصرٍ على الأعداء، فكله من عند الله جل وعلا، ولكن الحسنات من فضله جلَّ وعلا، والسيِّئات أسبابها مِن الإنسان وتَقصيرِه، ولهذا بعدما قال: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يعني قَدَراً وقضاءً، قال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ يعني: سَبب هذه المصيبة هي السيِّئة نَفسُها وتقصيره وظُلمه، كما قال في الآية الأخرى جلَّ وعلا: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، فما أصاب الناس مما يكرهون من تسليط الأعداء ومن هزائم ومن غير ذلك، فأسبابه أعمالُهم السيِّئة، وتقصيرهم في أمر الله، وتأخُّرُهم عن حق الله، وعدمُ قيامهم بما يجب من حق الله عليهم جل وعلا، فهذه أسباب الهزائم وأسباب النقص وأسباب المصائب، وما أصابهم من فضل ونصر وعز وتمكين فهو من فضل الله عز وجل ومن نعمته عليهم وإحسانه سبحانه وتعالى؛ فهو المتفضل بما يحصل من نصر وتأييد وجمع كلمة، وانهزام عدو إلى غير ذلك، فكلُّه من فضله سبحانه وتعالى، =

.....

= وأسباب ذلك: طاعته، والقيام بأوامره، والوقوف عند حدوده، والإعداد لعدوِّه، وأخذ الحذر دائماً، حتى في الصلاة، فيؤخذ الحذر وحمل السلاح والاستعداد للعدو حتى لا يهجم العدو على غِرَّة، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

[التحذير من الغلو في الدين]

۞ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا

﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾ [النساء: ١٧١-١٧٦]. [٣١]

[شرح٣١] يُحذِّرُ ـ جَلَّ وعلا ـ أهل الكتاب من الغُلوِّ في دِينهم، وأهلُ الكتاب: هم اليهود والنَّصارى، بإجماع أهل التفسير، وإن كان المراد هنا النَّصارى، فلهذا قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾. وكذلك يدخل اليهود في المعنى؛ لأنهم كذَّبوا عيسى وأنكروه، وزعموا فيه المقالة الشَّنيعةَ، بأنه وَلَدُ بَغيٍّ. فالسِّياقُ وأن كان في النَّصارى لكنَّه يَعُمُّ الجميعَ، وهم منهيُّون عن الغُلُوِّ في دينِهم جميعاً، فليس لليهود أن يَغلُوا في دينهم، في العُزَير أو في غير العُزَير، وإن غَلَوا في العُزَير فجعلوه ابنَ الله، وغَلَوا في الأحبار والرُّهبان فأحلُّوا ما أحلُّوا، وحرَّموا ما حرَّموا من غير بُرهانٍ، وكذلك النَّصارى غَلَوا في المسيح، وجعلوه =

.....

= إلهاً مع الله، أو ابنَ الله، أو ثالثَ ثلاثةٍ، وغَلَوا في أُمِّه أيضاً، وجعلوها إلهاً مع الله، وغَلَوا في أحبارهم ورهبانهم... إلخ.

فالله عز وجل حذَّر الجميع من الغُلوِّ، والغُلوُّ: هو الزِّيادةُ في الشيء المشروع، كالزِّيادة في حُبِّ الأنبياء والصالحين، والزِّيادةُ في بعض العبادات شيئاً لم يُشرِّعه الله، حتى يكونَ مُبتدَعاً، يقال: غَلَت القِدْرُ: إذا زاد ارتفاع الماء فيها بسبب النّار التي تحتها، ثم زادت النّارُ، فزاد الغَلَيانُ وارتفع.

فاليهود والنَّصارى غَلَوا في حُبِّ أنبيائهم وصالحيهم حتى عبدوهم مع الله، كما زادت الطَّوائفُ الأخرى ممن ينتسبُ إلى الإسلام والسُّنَّة من هذه الأمَّة في حُبِّها للصالحين والأنبياء حتى عبدوهم من دون الله. فالغُلوُّ الذي حذَّر الله منه أهل الكتاب، وقع فيه ضُلّالُ هذه الأُمَّة ـ أُمَّةِ محمد ﷺ ـ والله جل وعلا حذَّر هذه الأمَّة من التَّشبُّه بمن قبلها في الغُلوِّ وغيره.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ نهيٌ لهم ونهيٌ لنا، كأنَّهم مثلما قال حذيفةُ: قال: «القومُ» ولم يَعْنِ به سِوانا، =

.....

= فنحن مَعنيُّون كما هم مَعنيُّون بالنَّهي والتَّحذير. وقال ﷺ: «لَتتَّبِعنَّ سَنَنَ من كان قبلَكم شِبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جُحرَ ضَبٍّ لدخلتُموه». قالوا: يا رسول الله، اليهود والنَّصارى؟ قال: «فمَنْ؟»[1].

فالواجب على جميع النّاسِ ـ ولا سيَّما أهل الإيمان والتصديق ـ أن يحذروا الغُلوَّ، فإنَّ عاقبته وخيمةٌ، وأن يستقيموا على الحدِّ الشرعي في كلِّ أمورهم، فيستقيموا على الحدِّ الشرعي في التَّوحيد، فلا يشركوا مع الله جلّ وعلا غيرَه، ويستقيموا على الحدِّ الشَرعي في حُبِّ الأنبياء، فلا يرفعوهم فوق منازلهم حتى يجعلوهم آلهةً مع الله، وفي حُبِّ الصالحين كذلك، فيحبونهم حُبّاً يَليقُ بهم، في كونهم استقاموا على أمر الله، وفي كونهم صُلحاءَ، دون أن يجعلوهم في منازل العبوديَّة أو في منازل الإلهيَّة.

فهناك حُبٌّ في الله وحُبٌّ مع الله، الحبُّ في الله هو المشروع، والحبُّ مع الله هو الممنوع؛ لأنه اتخاذ آلهةٍ مع الله عز وجلّ، وجَعلُ =

(١) أخرجه البخاري: أحاديث الأنبياء (٣٤٥٦)، ومسلم: العلم (٢٦٦٩).

.....

= المحبةِ شركاً.

والمسيح هو عيسى ابن مريم، سُمي مَسيحاً من المَسْح؛ لأنه إذا مَسحَ على ذي عاهة أَبرأَه الله، كالأَكْمَه والأَبْرَص، وقيل فيه غير ذلك.

ويقال في الدَّجال مَسيحٌ، ومَسيخٌ من المسخ، ولكنَّ المشهور فيهما جميعاً المسيح بالحاء، وقيل للدَّجال مَسيحاً؛ لأنه يمسح الأرض، فيَعمُّها ويَطَؤُها، فلا تبقى أرضٌ إلا عمَّها ووطِئها، إلّا الحرمين، مكة والمدينة، فإنَّ الله يمنعُه منهما؛ كما في الحديث الصحيح[1]، فإذا نزل حول المدينة رَجَفَت رجفاتٌ، فيَخرج إليه منافقوها، وأهل الشرِّ. ولا يمتنع أن تكون مكّة كذلك، وإن كنت لم أقف على شيء في مكة من جهة الرَّجَفات، لكن ما دام وقع في المدينة فالذي في مكة كذلك، إذا كان فيها وقتَ مجيئه إليها مَن هو على دينه وشاكلته.

ونُسب عيسى ابن مريم لأمه؛ لأنه لا أب له، فخلقه الله من =

(١) أخرجه البخاري: الحج (١٨٨١)، ومسلم: الفتن وأشراط الساعة (٢٩٤٣).

.....

= أُنثى بلا ذَكَر، قال الله له: كن، فكان، أما غيره فيُنسَبون إلى آبائهم، قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥]، أما عيسى عليه السلام فقد جعله وأمَّه آية للناس، وأتم به قسمة الإنس إلى أربعة أقسام: قسم من طين لا من ذَكَر ولا من أنثى، وهذا هو أبونا آدم عليه الصلاة والسلام. وقسم من ذَكَر بلا أنثى، وهذه أمنا حواء، خلقها الله من نفس آدم. وقسم من أنثى بلا ذَكَر، وهذا هو عيسى عليه الصلاة السلام. وقسم هو بقية الناس جميعاً من ذَكَر وأنثى، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣].

وبسبب كون عيسى عليه السلام خُلق من أنثى بلا ذَكَر انقسمت فيه اليهود والنصارى، فاليهود ـ عليهم لعائن الله المتتابعة ـ جفَوا وفرَّطوا وقصَّروا ونفَوا نبوته ورسالته، وزعموا أنه ولد بغي، فكفروا بذلك كفراً بواحاً، نعوذ بالله من ذلك، والنصارى غلوا وزادوا وأثبتوا أنه رسول الله، ولكنهم زادوا، فجعلوه ابن الله، وجعلوه ثالث ثلاثة، وهذا من كفرهم وضلالهم. ولم يسلم من هذا البلاء إلا الحنيفيون أمة محمد ﷺ المؤمنون، وهكذا من آمن من =

.....

= بني إسرائيل بعيسى عليه السلام، فإنهم صدَّقوا أنه رسول الله وأنه خُلق من أنثى بلا ذكر، كما آمنت أمة محمد ﷺ بذلك، قال الله عز وجل له: كن، فكان. وهذا هو الحق فيه، لا كما تقول اليهود ولا كما تقول النصارى، وعلى كل مسلم أن يبرأ إلى الله مما قيل فيهما، وأن يعتقد الحق في المسيح، وأنه عبد الله ورسوله.

﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ كلمته لأن الله قال له: كن، فكان بهذه الكلمة، وسُمي «كلمة الله» لأنه كان بها ووُجد بها، و«روح منه» لأن الله خلق هذه الروح في مريم، وأنشأ عيسى منها، فالله من خلقها وأوجدها سبحانه وتعالى؛ كما قال عز وجلّ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] أي: خلقاً وإيجاداً.

ويسمى «روح الله» أيضاً من باب إضافة المخلوق إلى خالقه إضافةَ تشريف وتكريم، فالمعنى: روح من الأرواح التي خلقها، وأوجدها، فأضافها إلى نفسه إضافة تشريف وتكريم؛ كما يقال: بيت الله، أي: الكعبة، وناقة الله، أي: ناقة صالح، من باب =

.....

= التشريف والتكريم، فالبيت مخلوق والناقة مخلوقة، فإضافتهما إلى الله إضافة تشريف وتكريم، وهكذا في الخُمسِ، يقال فيه مال الله، ويقال: رسول الله؛ للتشريف والتكريم، فهذا من إضافة المخلوق إلى خالقه.

وقد يضاف المخلوق إلى الله إضافة خلق وإيجاد، لا بقصد التشريف والتكريم، لبيان أنه مخلوق موجود، أوجده الله عز وجلّ، كما يقال: أرض الله، وسماء الله، ومال الله، وعباد الله، من باب الخلق وأنهم مخلوقون لله، فالله سبحانه وتعالى أوجدهم، كما قال سبحانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: آمنوا أيها الناس بالله، وأنه ربكم وإلهكم الحق، وأن رسله عبيد من عبيده، أرسلهم الله إلى عباده؛ ليدعوهم إلى توحيد الحق والهدى وطاعة الله، وليسوا بآلهة.

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ﴾ احذروا أن تقولوا هذا الكلام، لا تقولوا ثلاثة آلهة: عيسى، وأمه، والله عز وجلّ، فإن هذا من أبطل الباطل. =

.....

= ثم قال: ﴿ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ انتهوا عن هذا الكلام خيراً لكم، فهذا هو الواجب على جميع العباد، أن ينتهوا عن هذه المقالة، ولا سيَّما النصارى، وأن يقولوا الحق، وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

وفي الآيات فوائد أخرى، وفي آخر الآيات ذِكرٌ للمواريث، وقد سبق القول عليها في آيات المواريث، نسأل الله التوفيق.

سورة المائدة

[الوفاء بالعهود]

۞ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ
ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ
ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ
ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ
فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟
ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ
وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ
أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن
يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ
﴿٥﴾ [المائدة: ١ - ٥]. [٣٢]

[شرح٣٢] هذه السورة العظيمة من آخِر ما نزل على النبيِّ ﷺ، وفيها أحكام كثيرة بيَّنها الربُّ عز وجل لعباده، وبَدأَها بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ خاطَبهم سبحانه بالإيمان لأن أهل الإيمان هم أهل الامتثال على الكمال، وإن كان الخطاب لجميع الناس، فكل الناس مخاطبون باتِّباع الرسول ﷺ وطاعة أوامره =

.....

= ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، فالوفاء بالعُقود من العبادة ومن التقوى وطاعةِ الله ورسوله، واتِّقاء مَحارِمه وغَضبِه، والإيمان به وبرسله، وأهلُ الإيمان الذين قد صدَّقوا الله وآمنوا به وبرُسلِه هم أَولى الناس بالامتثال، وأَحقُّ الناس بأن يُخاطَبوا، لإيمانهم بالله ورسوله، وهذا موجود في القرآن كثيراً، فيخاطب أهل الإيمان وهو الأكثر، ويخاطب الناس وهو دون ذلك في آيات كثيرات.

وإذا عَلِم المؤمنُ هذا المعنى عرف أن الواجب عليه العناية بهذه الأوامر والانتباه لها واليقظة، ولهذا فقد ورد عن ابن مسعود قوله: إذا سمعت الله عز وجل يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ فأَصغ إليها سمْعَك، فإنه خيرٌ تُوصى به أو شرٌّ تُصرف عنه[1].

فأنت يا عبدَ الله محسوب من أهل الإيمان المخاطبين، ولفظ الإيمان يطلق هنا على جميع المسلمين، فالخطاب يَعُمُّ المسلمين جميعاً، وليس على الاصطلاح المعروف من أهل السُّنة أن المؤمن أَخصُّ =

(١) انظر «شعب الإيمان» ٢/ ٣٦١.

.....

= من المسلم، فهنا في هذا المعنى الآية عامَّة، فمَردُّه أصل الإيمان، الذي يشمل المسلمين عموماً، فهم مخاطبون بأن يمتثلوا قوله في آية المخاطبة بالإيمان.

﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ يعني: أوفوا بما جرى من العُقود فيما بينكم وبين الله وما بينكم وبين العباد، فالمسلم بإيمانه وإسلامه ودخوله في دين الله قد عاقد الله على أداء أوامره وترك نواهيه، فعليه أن يُوفي بهذا العقد ويلزمه لله سبحانه وتعالى حتى يلقاه، وذلك في ترك المحارم وفي أداء الفرائض وفي الوقوف عند الحدود.

وهكذا ما يقع بينك وبين الناس من العقود من بيع أو تجارة أو غير ذلك، عليك أن تُوفي بالعقود، وهذه الآية أصل عظيم في وجوب الإيفاء بالعقود ولزومها، إلا ما دل الشرع على أنه جائز وليس بلازم، وهي أصل عظيم في عدم التَّساهُل بهذا الأمر، وأن العقد شأنه عظيم، فالواجب الوفاء به وعدم التَّحايل لإبطاله وإفساده بغير حقٍّ.

ثم يبيِّن سبحانه وتعالى حِلَّ بَهيمةِ الأنعام، وقد تكرَّر في =

.....

= كتاب الله ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ يعني إلا ما نَصَّ الله على تحريمه، كما في قوله جلَّ وعلا: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ الآية [الأنعام: ١٤٥].

وكذا ما ذَكَر بَعدَ ذلك من قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ إلى آخره، وقد قَصَّ وتلا علينا في مواضعَ أشياءَ حرَّمها علينا جل وعلا؛ فهي مُستثناةٌ.

ثم يبيِّن جل وعلا بعد ذلك بقوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ ـ وإن كان مُبيَّناً في آخر هذه السُّورة، لكن ذُكر أيضاً في أولها تحريمه لعظم شأن ذلك ـ إنَّ المُحرِمَ يَحرُم عليه قتلُ الصَّيدِ وصَيدُه ما دام مُحرِماً، فنبَّهَ عليه في أوَّل السورة وفي آخرها في قوله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: ٩٥]، ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة: ٩٦] فهذا يبِّن لنا عِظَمَ شأن تحريم هذا الصَّيد، وأنه محرَّمٌ تحريماً شديداً على المحرِم، ولذلك قال: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾. =

.....

= ثم بَيَّنَ أشياء ونهى عن أشياء سبحانه وتعالى، بيَّن أمراً عظيماً، وقاعدةً كُلِّيةً وهي التَّعاون على البِرِّ والتَّقوى، وعدم التَّعاون على الإثم والعدوان، وأنَّ الواجب على أهل الإيمان أن يكونوا متعاونين على البِرِّ والتَّقوى أبداً، وأن يحذَروا التَّعاونَ على الإثم والعُدوان. وهذه قاعدة يجب أن تُلْزَمَ، ويجب أن تُراعى دائماً، وألّا يكون المؤمن عوناً على الإثم والعدوان، وأن لا يتأخَّر ويتقاعس عن الإعانة على البِرِّ والتَّقوى، فهو مخاطَبٌ بهذا وهذا، مخاطب بأن يُعِينَ أخاه، على البِرِّ والتَّقوى، ومخاطَبٌ بأن يحذَرَ إعانتَه على الإثم والعدوان، وهذا مقتضى النَّص، ومقتضى الأُخوَّة الإيمانية: أن تكون عوناً لأخيك على ما ينفعُه ويرضى الله عنه، فـ«المسلم أخو المسلم»[1]. ومَن كان أخاك فلا يجوز أبداً أن تكون عوناً له على ما يَضرُّه، ولا عوناً له على ما يُغضِبُ الله جل وعلا، بل تكون عوناً له على ما ينفعُه، وعوناً له على ترك ما يضرُّه، وهذا من القاعدة: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

(١) أخرجه البخاري: المظالم (٢٤٤٢)، ومسلم: البر والصلة (٢٥٨٠).

[الوضوء والغسل والتيمم]

۞ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾ [المائدة: ٦]. [٣٣]

[شرح٣٣] قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ ...﴾ الصلاة هي عمود الإسلام، وهي أهمُّ فرائضه بعد الشهادتين، والطهارة شرطها كما قال النبي الكريم ﷺ: «لا تُقبَل صلاةٌ بغير طهور، ولا صدقةٌ من غلول»[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تُقبَل صلاة أحدِكم إذا أحدث حتى =

---

(١) أخرجه مسلم: الطهارة (٢٢٤).

.....

= يتوضأ»[1]، ولذلك أنزل الله ـ جل وعلا ـ بيان هذا الفرض العظيم في هذه السورة العظيمة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ يعني: وأنتم على غير طهارة ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾.

أما إذا كان الإنسان على طهارة فإنه لا يلزمُه الوضوء، فله أن يصلي الفروض المتعددة بوضوء واحد، كما جاء في السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ، ولكن إذا أحب أن يتطهر من باب المزيد من الخير، ومن باب التقرب إلى الله كان فضلاً وكان مستحبًا، وفيه الثواب الجزيل الذي ورد في الطهارة الشرعية.

أما الوضوء فلا يلزمه إلا إذا كان على حَدَث، وقد صلى النبي ﷺ يوم الفتح عدة صلوات بوضوء واحد، فسأله عمر عن ذلك فقال: «عمدًا صنعتُه عمر»[2]؛ من أجل أن يعلم الناس أنه لا حرج في أن يصلي الإنسان صلاتين أو أكثر بوضوء واحد. =

(١) أخرجه البخاري: الوضوء (١٣٥)، ومسلم: الطهارة (٢٢٥).

(٢) أخرجه مسلم: الطهارة (٢٧٧).

.....

= وكما تُجمع الصلاتان بوضوءٍ واحد في السفر وغيره، والمقصود أن جمع الصلاتين أو أكثر بوضوء واحد إذا لم يُحدِث الإنسان لا حرج عليه في ذلك، وقد فعله رسول الله ﷺ وفعله أصحابه، عُلِم بذلك أن المراد بقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ يعني: وأنتم على غير طهارة، وهكذا التيمم حُكمُه حُكمُ الوضوء، فهو رافع للحدث كالماء، فإذا تيمم للصلاة جاز له أن يصلي به عدة صلوات في أرجح أقوال أهل العلم، ما لم يحدث أو يجد الماء؛ لقول النبي ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجدًا وطهوراً»[1]، سماه طهوراً كما أن الماء طهور.

ثم بين سبحانه وتعالى الفرائض في الوضوء وأنها أربعة: غسل الوجه، وغسل اليدين مع المرفقين، ومسح الرأس مع الأذنين ـ كما جاء في السنة ـ، وغسل الرجلين مع الكعبين، ورتبها سبحانه وتعالى هكذا ليُعلم أن المسح مرتب، ومعلوم أن المسح غير الغسل، فلما أدخل المسح بين المغسولات، والنبي ﷺ توضأ هكذا، عُلم أن =

(١) أخرجه مسلم: المساجد (٥٢٣).

.....

= المسح مقدم على غسل الرجلين، وأنه بهذا الترتيب. وهذا الترتيب فرض لا بد منه كما رتبه الله ﷻ، وكما فعله نبيه ﷺ.

ثم الموالاة بين هذه الأعضاء، وعدم التفريق بينها، والمقصود بالموالاة: أن لا يؤخِّر غسل عضو حتى يجفَّ الذي قبله، بل يوالي بينها عُرفًا؛ لأن الرسول ﷺ وَالَى بينها، فلا يكون متوضئاً مَن غَسَلَ وجهه ويديه ثم ترك، ثم عاد يمسح، فلا بدَّ من الموالاة مع بقاء النية؛ لأنها عبادة واحدة. فإذا وسَّع النية أو فرَّق بينها تفريقاً يقتضي مسافةً بين العضو السابق والعضو اللاحق بدون علة عارضة، فإن هذا يكون مخلًّا بالأمر الشرعي الذي فعله المصطفى ﷺ.

ثم ينبغي مراعاة الكعبين والمرفقين، وقد دلت السنة على أن ما بعد «إلى» داخلٌ، مع أن الأصل أن ما بعدها لا يدخل مع ما قبلها ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فلا يدخل إلا بدليل يدل على ذلك، فإذا دل الدليل صارت بمعنى «مع» كما في قوله جل وعلا: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء: ٢] أي: أموال اليتامى، وهكذا هنا فإن ما بعدها داخل، لِما جاء في الحديث =

.....

= الصحيح: أنه كان يغسل المرفقين ويغسل الكعبين[1]. فدل على أن قوله: ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ و﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ معناه: مع المرافق ومع الكعبين. وفي «صحيح مسلم»[2] عن أبي هريرة ﷺ: أن النبي ﷺ إذا غسل يديه أشرع في العَضُد، وإذا غسل رجليه أشرع في الساق، فهذا دليل على أنه ﷺ كان يغسل المرفقين ويغسل الكعبين.

ثم قال جل وعلا: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾، وهذا يدل على أنه لا بد أيضاً من الطهارة من الجنابة، يعني: لا يصلي وهو على جنابة، فالوضوء هو طهارة المحدث حدثاً أصغر كالريح والبول والغائط وأكل لحم الإبل ومس الفرج، وهذه الطهارة الصغرى، أما إذا كان على جنابة فلا بدَّ من الطهارة منها، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾ يعني: في الغسل، وهذا محل اتفاق وإجماع من أهل العلم أنه لا بد من الطهارتين في الصلاة. وفي الآية الأخرى: ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ﴾ [النساء: ٤٣]. =

(١) أخرجه البخاري: الوضوء (١٦٠)، ومسلم: الطهارة (٢٢٦).

(٢) برقم (٢٤٦).

.....

= ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ هذا يبيِّنُ لنا أن التيمم يكون عند فَقْدِ الماء، ويقوم مقامه في الجنابة والحدث الأصغر جميعاً، والتيمم نوع واحد، فإذا لم يوجد الماء وهو على حَدَثٍ أصغر تيمَّم، فيضرب التراب بيديه ويمسح بهما وجهه وكفيه، كما فعله المصطفى ﷺ، وكما دل كتاب الله جل وعلا، وكذلك إذا لم يوجد الماء وهو على الحدث الأكبر، فإنه يتيمم.

وهذا هو فرض التيمم، بنصِّ الكتاب العزيز، وبنصِّ الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ: مسحُ الوجه والكفين فقط، وليس معهما الذِّراعان ولا الرأس ولا الرِّجلان.

والحكمة في ذلك: أن التراب فيه تغبير وتوسيخٌ للبدن، فرحم الله العباد وكفانا سبحانه بشيءٍ قريب، الذي يؤذن بخضوع العبد لطاعة الله وتواضعه له وإذعانه لأمره، فلما حصل هذا المطلوب بتعفير وجهه وكفيه كفاه، بخلاف الماء فإن فيه نظافةً وتنشيطاً =

.....

= وتنظيفاً للأعضاء، فكان من حكمة الله أن جعله في الأطراف ليزداد الإنسان نشاطاً وقوةً على العبادة، ولتنظف هذه الأعضاء، أما التراب فليس كذلك فاكتفى الله منه جل وعلا بالشيء القليل الذي يحصل به المقصود وهو استسلام العبد لله وطاعته لأمر الله، حتى عفَّر وجهه ـ الذي هو أشرف شيء ظاهرٍ عنده ـ بالتراب طاعةً لله وتعظيماً له، وعفَّر يديه التي هي محل الأكل والشرب، والأخذ والعطاء، طاعةً لله وتعظيماً له سبحانه وتعالى، فدل ذلك على خضوعه وإذعانه لأمر الله ﷻ، والله تعالى أعلم.

ولهذا جعل الله هذا الوضوء كفارةً للذنوب ومن أسباب حَطِّ الخطايا، فإذا توضأ العبد المسلم خرجت خطاياه مع الماء أو آخرِ قَطْرِ الماء من وجهه ويديه ورأسه ورجليه كما جاءت السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ[1]، فالتيمم في المعنى مثله.

فالحاصل أن التيمم والغسل والوضوء، طهارتان عظيمتان مكفرتان للسيئات، أحدهما ينوب عن الآخر فالتيمم ينوب عن =

(١) أخرجه مسلم: الطهارة (٢٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

.....

= الماء عند فقد الماء وعند العجز عن استعمال الماء، سواء في الطهارة الصغرى وهي الصلاة، أو في الطهارة الكبرى وهي غسل الجنابة، وكذلك الحائض أو النفساء إذا فقدت الماء أو عجزت عن استعماله، فإن التيمم يقوم مقام ذلك، فتصلي بذلك وتحل لزوجها، فضلاً من الله وإحساناً سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ الظاهر من السياق أن «منه» للتبعيض، وأنه لا بد للتيمم من شيء يعلق باليد، وقد اختلف العلماء في ذلك، فقال قوم بظاهر الآية، وقال آخرون: لا يشترط ذلك، بل يمكن أن يمسح على كل شيء من حجر وأرض صَلْبَة ونحو ذلك، ولا يشترط أن يكون فيها شيء يعلق باليد من الغبار ونحو ذلك. والأقرب هو الأول كما هو ظاهر القرآن وظاهر السنة، ولكن عند العجز عنه يكفي ما تيسَّر، فإذا لم يجد تراباً ليس له غبار تيمم بما عنده من رمال أو نورة أو سبخات أو غير ذلك، وكان النبي ﷺ يسلك الطرق الرملية وغيرها فلا يحمل معه التراب، فالإنسان يتيمم من الأرض التي هو فيها، فإن كان في أرض ترابية تيمم بالتراب ومسح، وإذا علق الكثير نفخ فيه =

.....

= كما نفخ النبي ﷺ، ليطرح ما زاد على الحاجة، وإن كان في أرض ليس فيها تراب فيه غبار كأرض السبخات وأرض الرمال وأشباه ذلك والأرض الصلبة، فيتيمم بما وجد، والحمد لله ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق:٧]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وفي الآيات فوائد تُعرف بالتدبر والتعقل، وتُعرف من كتب التفسير لمن أراد. والله ولي التوفيق.